المطران خضر ... وبكل محبة...

بقلم الكولونيل شربل بركات

المطران خضر سيد الكلام إذا تكلم، وصاحب القلم الذي لا يجارى إن كتب، وفيلسوف المسيحية المحبة عندما يتحدث عنها، وهو دائما ما يفعل...

عودنا صاحب السيادة على أن نتقبل النقد والانتقاد بروح العالم الواسعة وبرحابة الصدر التي يمتلك. ويوم قرأناه يناجي عرفات المحاصر شعرنا بكبر المسيحية لولا أنه كاد أن يترحم على أيام عرفات في بيروت وكاد أن يمسحن الإرهاب الفلسطيني الذي لا شك عانى منه لبنان الكثير.

المطران خضر، ولا أريد أن أُفهم خطأ، هو بالفعل مسيحي مشرقي عميق في مسيحيته وفي مشرقيته حتى أنه أحيانا يدعي النسب إلى عروبة ما قبل الإسلام فيذكرنا بالغساسنة وبمقولة "لولا الإسلام لأكلت تغلب العرب". وهنا نحترم إصرارا فيه على عروبة" مسيحييه" وتعلقهم بها ولا شك أنهم كذلك، ولا شك أبدا أن الدماء العربية تجري في بعض مسيحيي المشرق الذين كانوا هنا قبل الإسلام وحتى قبل المسيحية وقد قبلوا المسيحية ثم عاشوا مع الإسلام حتى وصل البعض منهم إلى هنا.

كل ذلك صحيح ولا يمكن أن ينكر على صاحب السيادة جذورا عربية أو مشرقية ومحاولته للتعايش بين أديان هذه المنطقة، لا بل فخره بالانتماء إلى المسيحية، وبنفس الوقت تعلقه بالعروبة كامتداد إنساني لا يتخلى عنه. ولكننا عند حديثه في مقاله الأخير عن الموارنة كانت لنا بعض الملاحظات لا بد أن نذكرها بنفس المحبة التي يخاطب بها صاحب السيادة كل الناس من على منبر حر كجريدة النهار.

يقول صاحب السيادة في خطابه الذي يدافع فيه عن الموارنة بأن جماعته لم يشاركوا في الحروب حول لبنان، وكأني به يخاف أن ينسب إلى الذين يعادون الخط المتصلب في الإسلام الذي لا يقبل بشريك، وهو يقول بأن "جماعته" رفضوا المشاركة بأحداث ١٨٦٠ وهنا يصح التوضيح لأن ضحايا مجازر الشام التي قيل بأنهم بلغوا الآلاف، يومها (حتى لا نسمي من قتل في لبنان)، لم يكونوا بالتأكيد من الموارنة فما عساهم يكونون؟ وأولئك الذين حماهم الأمير عبد القادر الجزائري هل كانوا كلهم موارنة يسكنون الشام؟

من هذه الأسئلة الصغيرة نريد فقط التذكير بأن المشكلة ليست مع الموارنة، المشكلة الحقيقية هي مع الإسلام المتصلب من جهة، وكل من هم غير مسلمين من جهة أخرى، وهذا ليس بالشيء الغير معروف، نحن نحاول، مع المسلمين الصادقين في الوطنية والمحبين للإسلام الحقيقي

والمنفتحين على العالم، وهم أيضا يعانون كما نحن من وهم الجماعة التي لا يعني لها الإسلام إلا اضطهادا للآخرين وجهادا عليهم وتقتيلا حتى بأبناء المسلمين، نحاول أن نضع النقاط على الحروف على أن لا نتستر على الخطأ حتى يأخذ مأخذه. وما فعله الموارنة منذ بداية الإسلام أنهم جاهروا بالحقيقة التي يعتز بها صاحب السيادة ولكنه يخاف عواقبها. ولا شك بأنه اليوم بالذات في ظل ما يرى من التعصب الأعمى يخاف بالتأكيد ويحاول أن يهرب إلى الذمية.

نعم الذمية هي الكلمة المناسبة وهي ليست، لا سمح الله بتهمة أو كلمة بذيئة، ولكنها واقع وواقع مرير يعيشه كل مسيحيي المشرق وهم عندما يشعرون بالخطر الداهم يختبؤن خلفها متسترين، وينتظرون أن يعيد أحد ما الحقوق للشعوب المقهورة.

الروم يا صاحب السيادة ليسوا كلهم ذميون وإلا فما حال المطران عوده، وكيف تفسر خطاباته النارية التي يسمي فيها الأشياء بأسمائها دون خوف؟ الروم يا صاحب السيادة قد ناضلوا في سبيل لبنان ولا يزالون وقد دفعوا في سبيل الحرية من دماء بنيهم، أقله في هذه الحرب ونحن نعلم أنهم دفعوا ليس أقل من الموارنة أبدا وفي كل العصور، ولكنهم لم تكن لهم دوما قيادة سياسية أو دينية حرة لتتحمل المسؤولية وتجني ثمن التضحية.

هل تساءل أحد لماذا كان أنطون سعاده وميشال عفلق وجورج حاوي كلهم روم وأصحاب قضايا نضالية؟ هل تساءل أحد لماذا أبتدع أنطون سعادة الفكر القومي السوري وليس العربي مثلا؟ لأن أنطون سعادة الرومي شعر بأنه لن يستطيع أن يتحرر من الذمية إلا بفكر قومي يواجه الإسلام المتصلب في منطقة تشكل جماعته فيها نسبة عالية قد تستطيع أن تؤمن الاستمرار ضمن مناخ حر أو متحرر من الذمية ومباغضها وليس في الوطن العربي ككل حيث تختل الموازين وتضيع النسب.

وماذا فعل ميشال عفلق عندما اخترع البعث؟ ولماذا باعتقادك اخترعه؟ لأن المسيحيين يعيشون بألف خير في سورية والعراق ولا مشاكل لهم لا في الماضي ولا الحاضر؟ (إن كتاب تاريخ المهاجرة السورية الذي طبعه في بروكلين ارشمنضريط سوري من طائفة الروم الأرتودوكس سنة ١٩٠٢ لهو خير دليل في كل التفاصيل التي أوردها عن الإضطهاد الذي كان يتعرض له المسيحيون في سورية يومها) إن المعاناة هي التي تدعو إلى التغيير وهي وحدها الدافع إلى التضحية وهؤلاء المناضلون إنما كان نضالهم من أجل تحرير الإنسان في مجتمعهم وحيثما تواجد المسيحيون المشرقيون. هؤلاء كانوا مناضلين تحت شعارات شتى لتحمي المسيحية المشرقية من بغض وحقد الحركات الأصولية ليس إلا.

وجورج حاوي أيضا، وحتى في قتاله ضد المسيحيين في لبنان، كان يحاول، بداخله، وبمفهومه الخاص المستند على خلفية أن روسيا مهما تغيرت لا تزال أكبر حاضرة للروم، وها أن الأيام قد أظهرت حقيقة ذلك نوعا ما، كان يحاول أن يحمي المسيحية وأن يواجه التطرف.

ولكن مع احترامنا لكل هؤلاء فقد كان نضالهم متستر وذمي لدرجة ما، فهم لم يستطيعوا أن يقولوا عاليا أين هي مكامن الضعف في الأمة أو المنطقة بل حاولوا كما يحاول كل الذميون اليوم أن يلصقوا التهمة بالتساوي بين الضحية والجلاد، بين المبغض والمحب، بين المتستر بالدين والذي يملأ قلبه الحقد وذلك المنفتح على الكل والحر بكلمته وبإيمانه والذي لا يقبل الركوع أو الرضوخ حتى في أحلك الظروف.

الموارنة ياصاحب السيادة، وبكل محبة، يقدرون خوفكم، فالشر الذي يحيط يعرفونه جيدا، وعندما ينتصرون بإذن الله، وهم لا شك فاعلون، سيكون مقامكم محفوظا، وهم لم يسعوا لقتال الآخرين، وقد قبلوا بتقليص مناطقهم وسلطتهم ولقمة عيشهم، ولكنهم لا يقبلون أن يتركوا كلمة الحق ويتستروا تحت رداء الذمية، فلم يتعلموها بعد ولن يتعلموها بإذن الله.

ويوم ناضل الموارنة في الماضي لم يطلبوا وجاهة ولا رئاسة فهم قبلوا برئاسة الدروز الذين لم يقبلوا بتزعمهم مرة، وقبلوا بتزعم الروم، ويقبلون بالشيعة والعلويين وكل من يريد أن يتزعم، ولكنهم لا يقبلون بالذل ولا بالذمية ولا بأن يبخروا لكل زعيم إن نطق بالصدق أو الخطأ، فهم لم يعتادوا بعد إلا على الكلمة الحرة وسيقولونها ولو كانت السيوف على رقابهم، وسيقولونها ولو فتحت كل السجون، وسيقولونها ولو تهجر نصف شعبهم وذبح النصف الآخر، لأن الحقيقة لا تتجزأ والحرية لا موارية فيها ولا تفسيرات لها.

فدعوتنا لصاحب القلب الكبير أن يكون عادلا منصفا في كلامه على الموارنة، وأمنيتنا أن تصبح المسيحية الصادقة، مسيحية المحبة الخالصة التي لا يفلسفها أحد أحسن منكم، مشعلا يضيء قلوب الحاقدين وينير دروب الشرق الزاحف إلى هاوية القهر والشر، قبل أن يضربه الله بناره وببؤسه وبالشرور التي يحضرها للآخرين تحت اسمه تعالى، وكأن الله لم يعد يعرف الرأفة والرحمة، وكأنه سبحانه لم يكن يوما "رحمانا رحيم"...

٢٠٠٢/٧/١٠